خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

بتاريخ ٢٠٢٦/٣/١٣

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

*****

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالك يوْمِ الدِّينِ * إيَّاكَ نعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

قبل جمعتين تكلمت من منطلق سيرة النبي ﷺ حول حرقته لنشر وحدانية الله سبحانه وتعالى، حيث كان قد بُعث من أجل هذه الغاية، ولا يترشح حبه لنشرها من قوله وفعله فحسب بل قد نفخ في أصحابه وأتباعه أيضا روحا لا نجد لها نظيرا للاستعداد لتقديم كل نوع من التضحية من أجل التوحيد. باختصار سأتكلم اليوم أيضا حول هذا الجانب من سيرة النبي ﷺ وسأذكر تضحيات بعض الصحابة في سبيل ذلك أيضا. فكان من ثمار أعماله وحرقته ودعائه أن استعد الصحابة أيضا لتقديم هذه التضحية، نجد في رواية تحمُّلَ النبي ﷺ الاضطهادَ لنشر التوحيد، كالتالي:

ذات يوم قال المشركون لرسول الله ﷺ أَلَسْتَ تَقُولُ عن آلهتنا كَذَا وَكَذَا؟ فَقَالَ بلى. فَتَشَبَّثُوا به بِأَجْمَعِهِمْ، فجاء رجل أبا بَكْرٍ فقال له بَادِرْ صَاحِبَكَ. فَخَرَجَ ودَخَلَ الْمَسْجِدَ الحرام فوجد رسول الله ﷺ قد التفَّ به الناس، فقال لهم: وَيْلَكُمْ ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قَالَ: فَلَهَوْا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَقْبَلُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ. تقول ابنته السيدة أسماء: فَرَجَعَ إِلَيْنَا أَبُو بَكْرٍ فَجَعَلَ لَا يَمَسُّ شَيْئًا مِنْ غَدَائِرِه إِلاَّ جَاءَ مَعَهُ، (فقد جذبوا شعره بشدة حتى انتزع من أصله) وَهُوَ يَقُولُ: تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ.

وفي رواية أنهم جرُّوا شعر رأس النبي ﷺ المبارك ولحيته بشدة حتى سقط كثير من شعره، فقام سيدنا أبو بكر للدفاع عنه وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، فقال له رسولُ الله ﷺ اتركهم يا أبا بكر، فوالذي نفسي بيده قد بُعثت إليهم، حتى أكون فداء، (أي حين كانوا يظلمون النبي ﷺ ويضربونه فتدخل أبو بكر رضي الله عنه) فتركوا رسولَ الله ﷺ.

وكذلك حين رأى الحارث بن الحارث الغامدي قريشا يظلمون الناس، سأل والده: ما هذه الجماعة؟ (فهذا ليس حدثا واحدا، بل قد حدثت أحداث متماثلة كثيرة من هذا القبيل، قد رواها شتى الرواة،

وبعضهم فصَّلوا وبعضهم أوجزوا، باختصار حين رأى ذلك سأل والدَه مَن هؤلاء الذين يعتدون؟) فقال والدُه: هؤلاء قوم اجتمعوا على صابئ لهم، (كان أهل مكة يسمون النبي ﷺ والمسلمين صابئين سخرية منهم) قال: فتشرفنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله عز وجل والإيمان به (وكانوا يكفرون به ويؤذونه) حتى ارتفع النهار فتصدَّع عنه الناس.

إن مواجهته ﷺ للظلم مذكور في شتى كتب التاريخ، وقد استمد منها سيدنا المصلح الموعود ؓ وكتب في مقدمة تفسير القرآن:

ذات مرة، كان النبي ﷺ يسير في السوق، فأحاط به جمعٌ من أوباش مكة، وظلوا يلطمون رقبته طوال الطريق قائلين: "أيها الناس، هذا الذي يقول إنني نبي." وكانت تُقذف دارُه بالحجارة من البيوت المجاورة، وتُلقى فيها القاذورات والأوساخ، وكذلك في أماكن الطهي، إذ كانوا يرمون فيها الأرواث النجسة كأمعاء الماعز والإبل وما شابهها.

وعندما كان يصلي، كانوا يلقون عليه التراب والغبار حتى اضطر لأن يتخفى خلف صخرة ناتئة ليصلي بعيدًا عن أذاهم.

ألف ألف صلاة وسلام على ذلك الذات المبارك إذ لم يفتُر لحظةً واحدة ذلك الشوق المتأجج في صدره ﷺ لنشر التوحيد، وتقبَّل كل ذلك الاضطهاد بمنتهى الفرحة والسعادة وبصدر رحب، ومع ذلك كله لم تنقص محبته وشفقته بالإنسانية جمعاء مقدار ذرة.

وكتب سيدنا المصلح الموعود نفسه: عندما نقرأ وقائع حياة النبي ﷺ نجد دعواه حقيقة، حيث نطلع عند كل خطوة على أحداث تدل على ما كان يكنّه من حب وشفقة نادرين تجاه الإنسانية. لقد تحمل في سبيل تبليغ رسالة الله تعالى ولسنوات عديدة من الأذى والتعذيب ما لا حدود له.

فذات مرة كان النبي ﷺ في الكعبة فخنقه الكافرون بردائه خنقًا شديدًا حتى احمرت عيناه وكادتا تخرجان من حدقتهما. فعلم أبو بكر ؓ بذلك، فأتى مسرعًا ودفع عنه الكافرين وقال لهم وقد اغرورقت عيناه: ألا تخافون الله تعالى؟ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ (البخاري: كتاب المناقب، مناقب أبي بكر ؓ)

ذات يوم قام النبي ﷺ في المسجد الحرام وخاطب مشركي مكة قائلا: "قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا"، فانقضّت عليه قريش وهاجمتْه. فجاء صارخ يصرخ بأعلى صوته ليهاجمه، فكان أول من وصل إليه ﷺ هو الحارث بن أبي هالة ؓ، فبدأ يقاتل القوم ويفرقهم عن رسول الله ﷺ. فانقضُّوا عليه جميعاً حتى استُشهد.

وعقابا على جريمة نشر التوحيد، حصره وأفرادَ عائلته كفارُ مكة في شِعب أبي طالب لمدة ثلاث سنوات، أي فرضوا عليه مقاطعة اجتماعية شاملة، فلما انتهى الحصار، بدأ النبي ﷺ من جديد نشر

التوحيد بعزم ونشاط في مكة كلها كما كان يفعل من قبل، بل قد تنشط أكثر من ذي قبل، وفي المقابل استأنفت قريش اضطهادَ النبي ﷺ.

لقد ذُكر سفرُه ﷺ إلى الطائف أيضا عدة مرات، فالظلم الذي تعرض له ﷺ هناك مذكور في التاريخ بأساليب شتى، وسجله حضرة مرزا بشير أحمد ؓ أيضا فقال:

بعد انقضاء حصار شِعب أبي طالب، واستعادة النبي ﷺ شيئًا من حرية الحركة والتنقل، عزم على التوجّه إلى الطائف داعيًا أهلها إلى الإسلام. (وقد سبق ذكر هذه الحادثة بإيجاز، غير أنّه قد وردت هنا تفاصيل أخرى.) فالطائف مدينة معروفة تقع إلى الجنوب الشرقي من مكة المكرمة على مسافة تقارب أربعين ميلًا، وكانت موطن قبيلة بني ثقيف. وبغضّ النظر عن مكانة الكعبة المشرفة، فقد كانت الطائف تُعدّ نظيرًا لمكة في المترلة؛ إذ كان وجوه القوم وأصحاب الثروة والنفوذ والجاه يقطنون فيها.

وقد أقرّ أهل مكة أنفسهم بمكانة الطائف الرفيعة، ويتجلّى ذلك في قولهم الذي ورد في القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. أي: لو كان هذا القرآن من عند الله، فلماذا لم يُترَّل على رجل كبير من مكة أو الطائف؟

وفي شوال من العام العاشر للنبوة، توجّه النبي ﷺ إلى الطائف وحده، أو بصحبة زيد بن حارثة وفق بعض الروايات. وأقام هناك عشرة أيام، يلتقي برؤساء المدينة وأعيانها واحدًا تلو آخر، إلا أن هذه البلدة مثل مكة لم يُكتب لها بعدُ أن تؤمن، فأعرض الجميع عن دعوته بل سخروا منه. وفي آخر الأمر، أتى النبي ﷺ زعيمَ الطائف الأكبر عبد يا ليل يدعوه إلى الإسلام، فردّه ردًّا صريحًا، وقال على سبيل الاستهزاء: إن كنتَ صادقًا فأنا لا أجرؤ على محادثتك، وإن كنتَ كاذبًا فالحديث معك لا طائل منه. (هذا كان رده على دعوة النبي ﷺ) ثم خشيةً أن تؤثر كلمات النبي ﷺ في شباب البلدة، قال له: الأجدر بك أن تغادر هذا المكان، فليس ثمة أحد يُريد الاستماع إليك.

وبعد ذلك، أمر هذا الشقيّ أوباش البلدة وسفهاءها بملاحقته ﷺ، فلما خرج النبي ﷺ من البلدة، تبعوه بالصياح والضجيج وأخذوا يرشقونه بالحجارة، حتى أدمى جسده الشريف. وظلّوا يسبّونه ويقذفونه بالحجارة مسافة ثلاثة أميال متواصلة. وعلى بُعد ثلاثة أميال من الطائف، كان لعتبة بن ربيعة، أحد وجهاء مكة، بستانٌ، فالتجأ إليه النبي ﷺ واستراح فيه، بعد أن عاد المعتدون منهكين. وهناك، وهو واقف في ظلّ شجرة، رفع يديه إلى الله داعيا بهذا الدعاء: "اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي، وَقِلّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ، اللهم يَا أَرْحَمَ الرّاحمينَ، أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي." ثم قال ﷺ: "أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ."

كان عُتبة وشَيبة في بستانهما، فلمّا رأياه على تلك الحال، أشفقا عليه فأرسلا غلامهما النصراني عَدَّاس، يحمل إليه طبقا من العنب. ولعل الذي دفعهما إلى ذلك إما قرابة بعيدة أو قريبة، أو شعور قبلي، أو

دافعٌ آخر لا نعلمه، فتناوله النبيُّ ﷺ، ثم التفت إلى عدَّاس قائلًا: "مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ وَمَا دِيْنُكَ؟" فأجاب: "أنا من نينوى، وديني نصراني." فقال النبيُّ ﷺ: "أَمِنْ نينوى مدينة يونس بن متى الصالح؟" فقال عدَّاس: "نعم، ولكن كيف عرفتَ أمر يونس؟" فقال ﷺ: "ذلك أخي، كان نبيًّا من أنبياءِ الله، وأنا نبيٌّ من أنبياءِ الله." ثم دعاه إلى الإسلام، فتأثَّر عدَّاس تأثرًا بالغًا، وغلبه صدق الإخلاص، فتقدم يقبّل يدَ النبيِّ ﷺ. وكان عُتبةُ وشيبةُ ينظران إلى هذا المشهد من بعيد، فلما عاد إليهما عدَّاس قالا له: ما الذي حملك على تقبيل يد هذا الرجل؟ إنه سيُفسد عليك دينك، ودِيُنك خيرٌ من دينه.

وبعد قليل، استراح النبيُّ ﷺ في ذلك البستان، ثم غادره متوجِّهًا إلى نَخلة، وهي على مسيرة منزل من مكة، فأقام بها أيامًا. ثم ارتحل منها إلى جبل حِراء، وإذ كان يخشى أن يُجرِّئ الفشلُ الظاهري لرحلة الطائف أهلَ مكة على مزيدٍ من الأذى والظلم، أرسل شخصا مع رسالة شفهية إلى مُطعِم بن عَدي يقول: إني أريد الدخول إلى مكة، فهل تستطيع مساعدتي؟ وكان مُطعِم راسخًا في كفره، غير أنه كان ذا مروءةٍ وشهامة، وكان رفض الإجارة في مثل هذه الحالة مخالفا لطبيعة كرماء العرب. فجمع بنيه وذوي رحمه، وخرجوا مُتقلِّدين السلاح ووقفوا عند الكعبة، وأرسلوا إلى النبيِّ ﷺ أن يدخل. فجاء ﷺ وطاف بالبيت، ثم دخل داره تحت ظلال سيوفهم مع مطعم وأولاده. وفي الطريق رأى أبو جهل مُطعمًا على تلك الهيئة، فسأله متعجِّبًا: "أمجيرٌ أم تابع؟" أي: هل أجرتَ محمدًا فحسب، أم اتَّبَعْتَهُ؟ فأجابه مُطعِم: "بل مُجيرٌ لا تابع." فقال أبو جهل: "إذن لا بأس." ومات مُطعِم على كفره، بيد أنه أسدى هذا المعروف في تلك الحال.

وفي الحديث الشريف: سألت السيدة عائشة رضي الله عنها النبيَّ ﷺ: هلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أَشَدَّ مِن يَومِ أُحُدٍ؟ فأجاب ﷺ: يا عائشة، لقد لقيتُ من قومك بلاءً عظيمًا. ثم حدَّثها عن رحلة الطائف، وقال: في طريق العودة منها جاءني ملَك الجبال، وأخبرني أن الله أرسله إليَّ، فإنْ شئْتَ أَنْ أُطْبقَ عليهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. فقلت لا، بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخرِجَ اللَّهُ مِن أَصْلَابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا. (سيرة خاتم النبيين ﷺ)

غلبت عليه مشاعرُ المواساة تجاه الناس، وكان في الوقت نفسه على يقينٍ راسخ بأن أبناءهم وأحفادهم سيعتنقون الإسلام يومًا ما، ويتمسكون بعقيدة التوحيد.

وقد أورد المصلح الموعود ؓ في موضعٍ جملةً من الأحداث التي عانى فيها النبي ﷺ من الأذى في سبيل نشر التوحيد، فقال: إن الأعداء سلَّطوا عليه كلَّ ضروب الأذى بسبب دعوته إلى التوحيد؛ كانوا يضربونه، ويُغرون به الكلابَ والصبيان. وفي إحدى المرات توجّه إلى الطائف، فآذاه أهلُها إيذاءً شديدًا حتى سال دمُه من رأسه إلى قدميه، (وهو ما بينتُه آنفًا) كان يسقط على الأرض من شدة الألم، فإذا نهض رشقوه بالحجارة من جديد. وفي خضمّ هذا كله، لم يكن يجري على لسانه إلا الدعاء: "اللهم

اغفر لهم، فإنهم لا يعلمون." و لم يتخلّ طوال هذه المحن عن تبليغ التوحيد، وظلّ يقول: مهما فعلوا، فلن أترك الدعوة إلى التوحيد. وحين قرب أجله، فارق الحياةَ وهو على هذا العهد. (أي كانت حياته كلها قائمةً على التوحيد، وكان آخرُ وصاياه لأصحابه: ألا يعودوا إلى الشرك بعده. قال ﷺ:) إنني أرى أن الله تعالى أثبت وحدانيتَه منذ مولد النبي ﷺ، وذلك بوفاة والده قبل ولادته، ووفاة والدته بُعيد ولادته؛ إذ كانت مشيئةُ الله في وفاة والدَيه أن يُقيم الدليلَ على توحيده. فكانت بدايته من دون أب وأمّ، ثم نهايتُه المشرفة، شاهدًا بيّنا على توحيد الله تعالى. (سيرة النبي ﷺ) ويتجلى من ذلك كله أن الله الذي دعا النبيُّ ﷺ إلى توحيده هو الذي تكفّل برعايته وحفظه منذ طفولته حتى آخر حياته.

وقد وردت أيضًا أخبارٌ عن تبليغ النبي ﷺ في أسواق العرب؛ إذ كان رسول الله ﷺ يؤدي فريضة الدعوة إلى التوحيد بمكة المكرمة على المستويين الفردي والجماعي، ويتوجّه فضلًا عن ذلك إلى بعض أسواق العرب، يُبلّغ فيها دعوةَ الإله الواحد الذي لا شريك له.

كانت خارج مكة أماكن مختلفة يجتمع فيها الناس، ويبيعون ويشترون، وكانت تُسمى «أسواق العرب»، وهي تشبه بما يسمى عندنا في حضارة شبه القارة الهندية-الباكستانية مهرجانات. وكانت عُكاظ، ومَجَنَّة، وذو المجاز من أسواق قريش والعرب، وكان أكبرها سوق عُكاظ التي تبعد عن مكة بمسافة ثلاث ليال، كان العرب يقيمون في سوق عُكاظ شهر شوال كاملاً. ثم ينتقلون إلى سوق مَجَنَّة التي تقع في مَرّ الظهران على بعد بضعة أميال من مكة، وكانوا يقيمون فيها حتى العشرين من ذي القعدة. ثم ينتقلون إلى سوق ذي المجاز التي تبعد ثلاثة أميال عن ميدان عرفات، وكانوا يقيمون فيه حتى أيام الحج. وكان النبي ﷺ يذهب إلى هذه الأماكن كلها ويقوم بالدعوة.

عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بمَكَّةَ عَشْرَ سنِينَ، يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ يَقُولُ: مَنْ يؤْوِينِي، مَنْ ينصرُنِي، حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ.

وعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عبادٍ ﷺ ، وَكَانَ جَاهليًا فَأَسْلَمَ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوق ذِي الْمَجَازِ، يَقُولُ: "يَاأَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا. وكان النبي ﷺ يَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا وأزقتها وَالنَّاسُ مُتَقَصِّفُونَ عَلَيْهِ (أي يصرخون عليه)، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَقُولُ أَنْ صدِّقوه، وَمع ذلك كان النبي ﷺ لَا يَسْكُتُ، بل يَقُولُ باستمرار: "أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا".

لقد تعرض النبي ﷺ لصنوف الأذى على أيدي الأقارب والأغيار كلهم، نتيجة تبليغه رسالة توحيد البارئ إليهم. وكان لا يستطيع أن يعبد الله علنًا، ومع ذلك كان يبلغهم الدعوة. كان يبلغ دعوته مع أنه كان هناك خطر أن يخلّوا بعبادته ويهاجموه. وكانوا يصبّون الظلم على من صار مسلما أيضا. وبشأن صلوات النبي ﷺ وعباداته ورد في رواية أن النبي ﷺ وعليا ﷺ كانا إذا حضرت الصلاة، خرجا إلى شعاب مكة فيصليان الصلوات فيها؛ فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، ثم إن أبا طالب عثر عليهما

يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: يا بن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: أَيْ عَمِّ، هذا دينُ اللهِ ودينُ ملائكته ودينُ رسله، ودينُ أبينا إبراهيم (عليه السلام)، وقد بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت يا عَمِّ أحقُ مَن بذلتُ له النصيحة، ودعوتُه إلى الهدى، وأحقُّ مَن أجابني إليه، وأعانني عليه. فقال أبو طالب: يا بْنَ أخي؛ إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي؛ ولكن والله لا يخلص إليك أحد من الأعداء بشيء تكرهه ما حييتُ، وسوف أنصرك في كل حال. ثم قال أبو طالب لابنه علي ﷺ: ما هذا الدين الذي أنت عليه ؟ قال: يا أبتِ، قد آمنت بالله وبرسوله وصدّقت بما جاء به (ﷺ)، وصليت معه لله. فقال له أبو طالب: أما إنه لا يدعوك إلا إلى خير، فالزمْه. أي ترك أبو طالب ابنه مع رسول الله ﷺ.

أما الصحابة فقد تعرضوا أيضا لاضطهاد شديد نتيجة إيمانهم بالتوحيد. ظلت قريش مكة يسعون بطريق أو بآخر لصدّ النبي ﷺ عن تبليغ دعوة الإسلام بين الناس، مستغلين قوتهم وسيادتهم، ولاجئين إلى أنواع الحيل من مفاوضات وتهديدات، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يبرحوا يصبّون على من أسلم منهم صنوف الاضطهاد والتعذيب الوحشي مما لا يقدر القلم على وصفه ولا يقدر أحد على بيانه. ومع ذلك فإن ما ذُكر من هذا التعذيب يجعل الإنسان يرتعد من هوله.

عندما آمن بلال ﷺ برسول الله ﷺ عُذّب صنوف التعذيب. وعندما كانوا يشددون عليه العذاب كان بلال رضي الله عنه يقول: أحد أحد. فكانوا يقولون له قُلْ كما نقول، فكان يجيبهم إني لا أحسن قول ما تقولون.

وفي رواية أخرى أن المشركين حين كانوا يؤذون بلالا ﷺ لرده إليهم كان يقول: الله، الله. وفي رواية أخرى أن بلالا ﷺ لما آمن ألقاه أسياده على الأرض ووضعوا عليه الحجارة وجلد البقرة، وقالوا له إن ربك اللات العزى، فما كان منه إلا أن كان يقول: أحدٌ أحدٌ. فجاء أبو بكر ﷺ إلى أسياد بلال وقال لهم إلامَ تؤذون هذا الرجل؟ ثم اشتراه منهم بسبع أوقيات، فأعتقَه. والأوقية أربعون درهما، أي أن أبا بكر اشترى بلالا رضي الله عنهما بمئتين وثمانين درهما، ثم أعتقه.

ثم هناك سُمَيّة وعمّار بن ياسر وخبّاب وعشرات آخرون من العبيد والأحرار ممن صاروا بسبب إيمانهم بالتوحيد عرضةً لمظالم الكفار القاسية المؤلمة التي يندى لها جبين الإنسانية.

لا شك أن كفار مكة كانوا يضطهدون المسلمين المستضعفين، إلا أن النبي ﷺ أيضا لم يكن في مأمن من أذاهم، بل كان الأكثر عرضة لاضطهادهم وأذاهم كما ذكرت آنفا. وما أشدَّه من إيذاء وإيلام له أنهم كان يسمونه مذمما (أي الأكثر مذمةً) –والعياذ بالله – بدلاً من ذكر اسمه محمد (أي الأكثر حمدًا). والذي كان أصدقَ أهل تلك القرية كانوا يسمونه كذابا مزورا. والذي كان أكثرَ الناس نصيحةً لهم كانوا يسمّونه خدّاعا وطمّاعا ومحتالا. والذي كان قد نذر شبابه وصحته وقوته وليله ونهاره لهداية

قومه وإصلاحهم وفلاحهم ونجاحهم كانوا يدْعونه مجنونا ومخبولا ومريضا. وحينًا كانوا يضعون الثوب في عنقه ويجرّونه به حتى كان يوشك على الاختناق، وحينا آخر كانوا يرشقونه بالحجارة، وتارة يلقون عليه القاذورات والنجاسات.

قال عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ. قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي الحطيم (وهو المكان الفارغ بجنب الكعبة الذي فيه جدار صغير) إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِه، فخَنَقَه خَنْقًا شَدِيدًا. فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وقَالَ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ.

ثم نرى حادثا آخر، وقد سبق بيانه مرارا، وهو أن النبي ﷺ أبدى دوما غيرة على توحيد البارئ تعالى وحتى في الحروب. هناك حادث شهير في غزوة أحد نسمعه كثيرا، وهو أن أَبا سُفْيَانَ نادى باسم النبي ﷺ وباسم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال هل هؤلاء في القوم؟ ولكن النبي ﷺ قال: لَا تُجِيبُوهُ. ذلك أن المسلمين عندها كانوا ضعفاء وكان الرد على سؤال أبي سفيان قد يعرّضهم للخطر، لذا أمرهم النبي ﷺ أن يظلوا صامتين. فهتفَ أَبُو سُفْيَانَ: اعْلُ هُبَلْ. فَلم يتمالك النَّبِيُّ ﷺ نفسه وقال للصحابة بحماس شديد: أَجِيبُوهُ. قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ. فقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَجِيبُوهُ. قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: قُولُوا: اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ. فترون أنه عندما مس الأمر بذات البارئ تعالى وبتوحيده لم يبال النَّبِيُّ ﷺ بأي خطر.

فكانت هذه غيرته على التوحيد في تلك اللحظة، حيث قال النبي ﷺ للصحابة: قولوا "الله أعلى وأجل، الله أعلى وأجل". أي قولوا لهم: إنكم تكذبون، فلا يُعلى شأن هُبَل، إنما الله وحده لا شريك له، وهو العلي العظيم.

والآن أقرأ لكم مقتبسًا من كلام المسيح الموعود ؑ، وهو اقتباس جدير بالقراءة المتكررة والاستماع إليه، لأنه يُبيّن لنا مقام النبي ﷺ ومرتبته في إقامة التوحيد، ويكون لنا دليلًا ومرشدًا إلى كيفية اكتساب العلم الصحيح للتوحيد والإدراك الحقيقي له. يقول ؑ:

"إنني دائما أنظر بعين الإعجاب إلى هذا النبي العربي الذي اسمه محمد (عليه ألف ألف صلاة وسلام). ما أرفعَ شأنَه! لا يمكن إدراك سمو مقامه العالي، وليس بوسع إنسان تقدير تأثيره القدسي. الأسف، أن الدنيا لم تقدر مكانته حق قدرها. إنه هو البطل الوحيد الذي أعاد التوحيد إلى الدنيا بعد أن غاب عنها. لقد أحبَّ اللهَ حبًّا جمًّا، وذابت نفسه إلى أقصى الحدود شفقةً على خلق الله، لذلك فإن الله العالِم بسريرته فضَّله على الأنبياء كلهم، وعلى الأولين والآخرين جميعا، وحقق له في حياته كل ما أراد."

(هذا هو الجمال بعينه أنه ﷺ -في آنٍ واحد- بلغ الحد الأعلى في حب الله تعالى، ووصل في الرحمة

والشفقة على المخلوقات منتهاها؛ وذلك لكي يقرّب الناس إلى الله تعالى، فيثبتوا على التوحيد، ويُصلحوا دنياهم وآخرتهم. يقول حضرته:)

هو ﷺ المنبع لكل فيض. ومن ادعى بأية فضيلة من غير الاعتراف بأنه قد نالها بواسطة النبي ﷺ، فليس هو بإنسان، وإنما هو ذرية الشيطان؛ لأنه ﷺ قد أُعطي مفتاحًا لكل خير وكنزا لكل معرفة. إن الذي لا ينال عن طريقه ﷺ فهو محروم أزلي. من نحن وما هي حقيقتنا؟ سنكون من الكافرين بنعمة الله ﷻ إن لم نعترف بأن التوحيد الحقيقي إنما وجدناه بفضل هذا النبي، وأن معرفة الإله الحيّ إنما حصّلناها بواسطة هذا النبي الكامل وبنوره، ولم نتشرف بمكالمة الله ومخاطبته التي نحظى من خلالها برؤية وجهه ﷻ إلا بفضل هذا النبي العظيم. إن أشعة شمس الهداية هذه تقع علينا كالنور الساطع، ونستطيع أن نبقى مستنيرين ما دمنا واقفين إزاءها. (فإن النبي ﷺ هو الوسيلة الوحيدة الآن للوصول إلى الله تعالى ولمعرفة توحيده الحقيقي)

والذين يتمسكون بفكرة خاطئة أن الذي لا يؤمن بالنبي ﷺ أو يرتد مع ثبوته على التوحيد ويؤمن بالله واحدا لا شريك له سينال النجاة ولن يضره عدم إيمانه بالنبي ﷺ أو ارتداده شيئا... إنما يجهلون حقيقة التوحيد جهلا تاما.... ولكن النجاة لا تتسنى باعتقاد الله واحدًا بالقول فقط بل تعتمد على أمرين اثنين.

(١) أن يؤمن الإنسان بوجود الله ووحدانيته بيقين كامل.

(٢) أن يكون الحب الكاملُ لله جل شأنه راسخا في قلبه حتى تصبح -نتيجةً لغلبته واستيلائه- طاعةُ الله تعالى راحة قلبه بحيث لا تحلو له الحياة دونها، (أي تكون هذه الحالة هي الغالبة لديه) ويطأ حبُّه حُبَّ غيره تحت الأقدام ويجعله كالمعدوم. هذا هو التوحيد الحقيقي الذي لا يمكن الحصول عليه دون اتباع سيدنا ومولانا محمد المصطفى ﷺ. ولكن لِمَ لا؟ الجواب هو أن ذات الإله الحق هي غيب الغيب ووراء الوراء وعلى غاية من الخفاء، ولا يمكن أن تدركه العقول الإنسانية بمجرد قوتها، ولا يمكن أن يكون أي برهان عقلي دليلا قاطعا على وجوده تعالى، لأن غاية مساعي العقل هي أن يقرر -بَعْدَ النظر في صنائع هذا الكون- ضرورة وجود صانع له. ولكن الشعور بالضرورة شيء، والوصول إلى درجة عين اليقين بأن الإله -الذي تقررت ضرورته عند العقل- موجود فعلا، شيء آخر تماما. (أي لا يكفي قول المرء بأنه لا بد أن يكون هناك صانعٌ لهذه الصنائع، بل يجب أن يعرف مَن هو هذا الصانع؟ إنه الإله الحيّ. ومن أراد معرفته فليعلم أنها لن توهب له إلا بارتباطه بالنبي ﷺ. قال حضرته:) وبما أن الدليل العقلي ناقص وغير مكتمل ومشكوك فيه وينقصه اليقين، لذلك لا يمكن لكل الفلاسفة أن يعرفوا الله معتمدين على العقل فقط. بل الحق أن معظم أولئك الذين يعتمدون على عقولهم فقط لمعرفة الله، يصبحون ملحدين دهريين في النهاية، ولا يغنيهم التفكّر في خلق السماوات والأرض شيئا. (وهذا ما

نراه اليوم بالفعل حيث إن كثيرًا من المتعلمين والمثقفين بين المسلمين يصبحون ملحدين، وينكرون وجود الله تعالى، وذلك لأنهم لا يفهمون حقيقة هذه الأمور، فإنهم لم يرتبطوا ارتباطًا حقيقيًّا بالنبي ﷺ، ولم يتدبروا ويتأملوا في تلك الأمور والتعاليم التي علّمها هو. قال حضرته:) إنهم يتخذون أولياء الله هزوا متذرعين بأن في الدنيا ملايين الأشياء التي نجدها عبثا لا جدوى منها ولم تتحقق عقلاً حكمتها الدالة على الصانع، إنما هي باطلة ولاغية. الأسف كل الأسف أن هؤلاء الجهلاء لا يعلمون (أي إنهم يقدمون دليلا لعدم وجود الصانع، لأن كل شيء لا يحمل فائدة ظاهرة؛ وما ذلك إلا لجهلهم بحقيقة الفائدة، فإن علمهم قاصر، لذلك ينطقون بمثل هذه الأقوال المتهافتة. يقول حضرته:) الأسف كل الأسف أن هؤلاء الجهلاء لا يعلمون أن عدم العلم بشيء لا يستلزم عدم الشيء. (أي إذا كنتم لا تعلمون عن شيء فلا يعني هذا أنه لا وجود له أصلا) هناك مئات الألوف من أمثال هؤلاء الذين يزعمون أنفسهم عقلاء وفلاسفة من الدرجة الأولى، ولكنهم ينكرون وجود الله أشد الإنكار. ومن البيّن أنه لو وجدوا برهانا عقليا ناصعا على وجود الله لما أنكروه. وكذلك لو أكرههم برهان عقلي يقيني على الإيمان بوجود البارئ جلّ شأنه (أي أفحمهم) لما كفروا به بوقاحة كبيرة واستهزاء شديد. وليس أحد ممن ركب سفينة الفلاسفة بناجٍ من طوفان الشبهات بل هو غارق حتما، ولن يغترف من معين التوحيد الخالص غرفة. فانظروا، ما أبطل وما أنجس الزعمَ القائل بأنه يمكن الوصول إلى التوحيد دون وسيلة نبينا ﷺ ويمكن أن ينال المرء النجاة بهذا المعتقد!

فيا قليلي الفهم، كيف يمكنكم الإيقان بتوحيد الله ما لم توقنوا بوجود الله حق الإيقان؟ فتيقنوا أن التوحيد اليقيني لا يتأتّى إلا باتباع النبي ﷺ. كما أن نبينا ﷺ قد جعل العرب الملحدين والمنحرفين يؤمنون بوجود الله بإراءتهم ألوف الآيات البينات، وأن أتباعه ﷺ الصادقين الكاملين كانوا ولا يزالون يُتِمّون الحجة على الملحدين بتلك الآيات المعجزة. (ونقدّم اليوم أيضا هذه الآيات) الحق والحق أقول إن الشيطان لا يغادر قلب الإنسان ولا يدخله التوحيدُ الصادق ولا يوقن أحد بوجود الله ما لم يشاهد القدرات الحية لله الحي، وإن ذلك التوحيد الطاهر والكامل إنما يُنال باتباع نبينا محمد ﷺ وحده." (حقيقة الوحي)

فهذا هو التوحيد الحقيقي الذي يجب أن نبحث عنه ونسعى إليه، ويجب أن نرفع إيماننا إلى ذلك المستوى السامي الذي نكون فيه مستعدين لكل تضحية. وأن نزرع في قلوبنا عشقا صادقا لرسول الله ﷺ.

لقد بعث الله تعالى في هذا العصر الخادم الصادق للنبي ﷺ لمواصلة مهمة إقامة التوحيد ونشره. وقد بايعناه، فلنجتهد بكل ما أوتينا من قوة لأداء حق هذه البيعة، كما ينبغي أن ندعو الله تعالى لذلك أيضا. وفي أيام رمضان الباقية خاصة، لنجعل دعاءنا هو أن نكون في مقدمة من ينشرون توحيد الله ويدافعون عنه. وفقنا الله تعالى لذلك، وأزال عنا ضعفنا.

وادعوا للأمة الإسلامية أيضاً -كما قلت ذلك في خطبة الجمعة الماضية- أن يفهموا التوحيد الحقيقي ويعملوا به، ففي ذلك بقاؤهم، وفيه نجاهم من مكر الدجالين. وفقهم الله تعالى لذلك.

بعد الصلاة، سأؤمُّ صلاة الجنازة على الغائب اليوم أيضا، للمرحوم الداعية ذكر الله تايو أيوب، الذي تُوفّي قبل أيام عن عمر ناهز الثمانين عامًا. إنا لله وإنا إليه راجعون.

بفضل الله تعالى كان من الموصين. وكان أصله من نيجيريا. وقد انضم إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية سنة ١٩٦٥ عن طريق رؤيا. وفي عام ١٩٦٦ التحق بكلية تدريب المبشرين في غانا، وبعد أن أكمل دراسته الابتدائية هناك عاد إلى نيجيريا سنة ١٩٦٩.

وبعد أن أدّى الخدمة لمدة سنة، التحق سنة ١٩٧٠ بالجامعة الأحمدية في ربوة لنيل شهادة "شاهد". وفي سنة ١٩٧٧ نجح أيضًا في امتحان "مولوي فاضل". حصل على شهادة "شاهد" سنة ١٩٧٩ وبعد ذلك عاد إلى نيجيريا وبدأ خدمته هناك وظل هناك حتى وفاته. وقد وفّقه الله لخدمة الجماعة قرابة سبعة وأربعين عامًا. وخدم في مقامات مختلفة في نيجيريا، كما أدّى الخدمة أيضًا كنائب الأمير في نيجيريا.

كما حصل على درجة الدراسات العليا في الصحافة والإعلام، ولذلك كان يعمل في هذا المجال أيضًا. وتم تعيينه مديرًا لجامعة المبشّرين في نيجيريا؛ حيث كان في البداية قائمًا بأعمال المدير، ثم خدم كمدير لمدة ثلاث أو أربع سنوات.

وكان أيضًا لاعبًا متميزًا وله شغف كبير بالرياضة، لكنه لم يسمح أبدًا أن تصبح الرياضة عائقًا أمام عباداته. وكان كاتبًا جيدًا، وخبيرًا في اللغات، وشاعرًا كذلك.

ترك خلفه زوجته وثلاثة أبناء وخمس بنات.

وأصغر أبنائه السيد عبد المجيب يخدم حاليًا في نيجيريا كداعية، بالإضافة إلى خدمته كمنسّق لمجلة "مقارنة الأديان" في نيجيريا، وهو من الواقفين في سبيل الله.

يقول الداعية المسؤول طاهر عدنان إن المرحوم كان إنسانًا تقيًا، مطيعًا، ومستعدًا دائمًا لخدمة الجماعة.

ويقول: أُتيحت لي فرصة رؤيته عن قرب لأكثر من عشرين عامًا، وخلال هذه المدة شاهدت نماذج كثيرة من أخلاقه الرفيعة، وتواضعه، وانكساره، وطاعته ووفائه غير العادي للخلافة ولنظام الجماعة.

ويقول: عندما أصبحت أنا المسؤول، كان أكبر مني سنًا، ومع ذلك أظهر وفاءً كاملًا وشعورًا عاليًا بالمسؤولية والطاعة، فكان يقبل توجيهاتي ويعمل بها بإخلاص.

كما يقول الداعية يوسف خالق إنه أثناء خدمته كمدير للجامعة كان يولي تربية الطلاب اهتمامًا استثنائيًا، وغرس فيهم روح المسؤولية، وكان يوصيهم دائمًا ألا يقدموا الأعذار في أي عمل. وكان يركز بشكل خاص على التنفيذ الفوري لتعليمات الخليفة الحالي.

ومن أجل التدريب العملي كان يرسل الطلاب أيضًا في حملات تبليغية. وكان دائمًا يقدّم مثالًا عمليًا بنفسه في كل عمل، الأمر الذي ترك أثرًا عميقًا في حياة الطلاب.

وقد رأيته بنفسي؛ كان شديد الإخلاص والوفاء، وإنسانًا في غاية التواضع.

نسأل الله تعالى أن يغفر له ويرحمه، ويرفع درجاته.

****